

من غيب عنوان

للقصصى لرى شىكر
بقلم الأديب محمود البدرى

كانت الشمس فى القرن الخامس عشر تشرق كل صباح وتغرب كل مساء كما هى اليوم . وحينما تقبل أشعتها الأولى ندى الأرض تنفض هذه عنها غبار السكرى ، وتشيع فى الدنيا البهجة ، وتحلو الأمانى ، وتعود الأرض فى المساء إلى سكوتها ، ثم تفوح فى غياهب الليل . وقد ترى أحيانا سحابة راعدة تلوح ، ويقصف الرعد وهو يزجر ، أو تهوى نجمة من شامق وهى وسسنى ، أو يقبل راهب حثيث الخطى شاحب اللون ليخبر رفاقه بأنه رأى نمرأ قريبا من الدير . كان هذا كل شيء ؛ ثم تعود ثانية الأيام تشابه الأيام ، والليالى تحاكي الليالى

كان الرهبان يصلون ويعملون : أما رئيس الدير فيعزف على الأرغن ، ويقرض الشعر اللاتينى ، ويؤلف النغم الموسيقى . وكان للكهل الحلو الوديع ذكاء فادر وسجيا جيدة . فهو يعزف على الأرغن ببراعة ، حتى أن معظم الرهبان الذين يضعف سمعهم كلما قربت نهاية حياتهم ما كانوا يستطيعون أن يمحسوا دموعهم كلما هفا صوت أرغنه من صومعته . وعندما يتكلم ولو عن الشؤون العامة كالشجر الوديف والوحوش الضارية والبحر الخضم ، لا يسمعه إنسان دون أن ترى دموعه تترقرق فى عينيه ، أو بسمه ترسم على شفتيه . فيخيل إليك أن الأنغام التى تتجاوب فى الأرغن هى بعينها التى تمتلج فى

نفسه . وحينما يهيج غيظ متمكن ، أو بأسره فرح شديد ، أو يتحدث عن أشياء مروعة تأخذها نشوة قوية ، ويتسائل الدمع من عينه اللامعة ، وتضرب وجهه الحمرة ، ويدوى صوته كالرعد . هنا يحس الرهبان المستمعون أن أرواحهم تذبها عظمتها وأنها تغنى فيه . لقد كانت قوته فى هذه الدقائق العظيمة العجيبة لا تحده ، فلو أمر شيوخ الدير أن يقذفوا بأنفسهم فى البحر لاستبقوا إليه مسرعين

كان موسيقاه وصوته وشعره الذى يتنهل به إلى الله منبعاً لسرور الرهبان لا ينضب . فى مدة حياتهم الرتيبة تنقلب الأشجار والأزهار والربيع والخريف إلى أشياء مملّة ، ثم بقلقهم هدير اليم الزاخر ، ويصبح شدو الطير مملول النغم موزون الجرس . ولكن سجيا رئيسهم كانت لهم عناية القوت المحبى والقوة المجددة

كرت السنون وما زالت الأيام تشابه الأيام ، والليالى تحاكي الليالى ، ومادنا من الدير أحد ، اللهم إلاضوارى الوحش وجوارح الطير . وكانت أقرب المساكن الإنسانية بعيداً جداً . ولا تصل إليها من الدير أو تصل إلى الدير منها حتى تعبر صحراء ذرعها مائة ميل

والذين يجروون على القيام بهذا هم أولئك الذين لا يحملون للحياة قيمة ولا يقيمون لها وزناً ، والذين نبذوها وراءهم ظهرياً ونفضوا أيديهم منها جملة . يولون وجوههم شطر الدير وكأنهم يسبرون إلى القبر

ولشد ما كانت دهشة الرهبان عند ما قرع بابهم فى ليلة من الليالى رجل برهن لهم على أنه من

والقحة ولكنه أثر تأثيراً غريباً في رئيس الدير ، فنظر هو والرهبان بعضهم إلى بعض ثم قل رئيسهم بوجه شاحب : « إخواني ! إنه لحق . فصحيح أن الحماقة والضعف البشري جرفا الإنسانية العسة في تيار الجحود والاثم فأهلكاها وقضيا عليها . وهانحن أولاء لا نريم من هذا المكان كأنه لا عمل لنا ولا واجب علينا . لماذا لا أذهب إليهم فأذكرهم بالمسيح الذي نسوه ؟ »

فالت كلمات رجل المدينة من نفس رئيس الدير ، ففي اليوم التالي أمسك بمكازه وودع إخوانه وركب الطريق إلى المدينة ، فأمرسى الرهبان لا ينعمون بموسيقاه ولا بحلو حديثه ولا برائع قريضه

ترقبوه شهراً ثم شهرين فساد ؛ وأخيراً في نهاية الشهر الثالث سمعوا نقر عصاه المألوف تخف الرهبان لللاقته وأمطروه بالأسئلة ، ولكنه بدلا من مشاركتهم في جهورهم بكى بكاء مرأ وما نبس بينت شقة . رأى الرهبان أنه أصبح نحىلا ، وأن أعراض الكبر قد بدت على ملامح وجهه

فما تمالك الرهبان وقد رأوا منه ذلك أن أجهشوا بالبكاء ؛ وسألوه عما يبكيه ، فما أجابهم بكلمة ، وغادرهم موصدا عليه بابه ومكث في صومعته خمسة أيام ما شرب فيها شراباً ولا طعم طعاماً ولا علف على الأرغن . ولما طرق الرهبان عليه بابه وألحوا عليه في الخروج ليشاركوه في أساء كان جوابه الصمت العميق

خرج من معتكفه أخيراً وجمع حوله الرهبان وأخذ يقص عليهم ما حدث له خلال الشهور

سكان المدينة ؛ وكان هذا الرجل أكثر الناس ارتكاباً للاثم وحباً للحياة . وقبل أن يصلى أويرجو رئيس الدير أن يباركه طلب طعاماً ونبئدا فلما سألوه عن سبب قدومه من المدينة إلى الصحراء قص عليهم قصة صيد طويلة : خرج يطلب الصيد ومعه شراب كثير فضل الطريق ، وعند ما أشاروا إليه أن من الواجب عليه أن يمسى راهباً أجابهم في ابتسام :

« لست لكم بصاحب ! »

شرب وأكل ملء بطنه ، ثم رفع بصره إلى الرهبان الذين يقومون بخدمته وهز رأسه لأعماً وقال :

« إنكم معشر الرهبان لا تعملون شيئاً ، كل ما تمنون به هو طعامكم وشرابكم . هل هذه هي الطريقة لخلاص أرواحكم ! فكروا الآن ! بينما أنتم تعيشون في هدوء هنا ، تأكلون وتشربون وتحمون بالخيرات والبركات إذا باخوانكم هناك قد كتب عليهم عذاب الجحيم . انظروا ما الذى يحدث في المدينة ! بينما بعض ناس يموتون جوعاً ، إذا بالآخرين لا يعرفون كيف يبدرون الذهب . ينغمسون في الدعارة ويهاكون فيها كما يهلك الذباب في العسل ؛ ثم لا صدق ولا إخلاص بين الناس . من الذى يجب عليه انتشالهم مما هم فيه ؟ أنا الذى أروح صريع الكأمن من الصباح إلى المساء ؟ هل أنعم الله عليكم بالإخلاص ومن عليكم بالحب وحباًكم القلوب الرحيمة ، لتجلسوا هنا بين هذه الجدران الأربعة ولا تعملون شيئاً ؟ ! »

وكان كلام الرجل السكير ينطوى على الجرأة

نصف غارية على منضدة وسط القاصفين ، ويصعب عليكم أن تتصوروا شيئاً أكثر فتنة وسجراً منها ! صبي ناضر زاهر ، وشعر طويل جثل ، وعينان سوداوان لامعتان ، وشفتان مكنتان محمرتان ، ثم سفاهة وجراءة وقحة . هذه البهيمة تبتسم فتفتر عن أسنان بيضاء كالبرد كأنها تقول : « انظروا ! إني جميلة ومستهترة ... » وتتدلى من عاتقها الملابس الحربية البديعة المشجرة . على أن جمالها لا تحبثه ملابس ، لأنه بشره يفسح لنفسه الطريق بين طيات ثوبها .. كأنه الأعشاب الصغيرة وهي تشق لنفسها الطريق في الأرض زمن الربيع . وتشرب المرأة التي لا تستحي التبيذ ، وتغنى الأغانى ، ثم تستسلم بعد ذلك للمعربدين ... « لوح الرجل الكهل بذراعيه حائقاً ثم استمر يصف لهم سباق الخيل ، وصراع الثيران ، والملاعب ، وحوانيت الفنانين حيث يمرض هيكل المرأة المارية مرسوماً بالزيت أو منحوتاً بالصلمال

كان الرجل في حديثه لسنا ملهماً جهورى الصوت حلو الجرس كأنه يعزف على آلة موسيقية لا تقع عليها العين ، والرهبان ذاهلون عن أنفسهم ، غائبون عن رشدهم ، وقد أسرهم كلماته وسحروهم بياحه ، فهم يلهثون من فرط السرور . فلما فرغ من وصف اغواء ابليس وفتنة الفسوق وسحر المرأة لعن ابليس ثم غادر المكان واختفى وراء باب

فلما خرج من صومعته صباح اليوم التالى لم يجد راهبا واحداً فى الدير . فقد انطلقوا جميعاً مسرعين إلى المدينة ١١

محمد البردى

الثلاثة التي خلت والدمع ينضح وجهه والألم بأكل قلبه ؛ ثم هدأت نفسه وتهللت أساريره حينما أخذ يصف لهم رحلته من الدير إلى المدينة . غنى الطير وخر الجدول على جوانب الطريق ، وجاش صدره بالأمانى الحلوة والآمال المعسولة . شعر بأنه جندى يتيماً لا فتحام الموقعة والوصول إلى النعم المحقق . سار حالماً يقرض القصيد ويصوغ النشيد ؛ وسرعان ما وجد نفسه فى نهاية الرحلة . على أن عينه أومضت باللهب ، ونفسه جاشت بالغضب ، وصوته ارتمش عند ما بدأ يتحدثهم عن المدينة والانسانية . ما كان رأى ولا تخيل قبل اليوم كل الذى رآه وأحساه وهو فى قاب المدينة . رأى وفهم لأول مرة فى حياته سلطان ابليس وسيادة الجور وضعف القلب الانسانى الخاوى . هنا خمسون أو ستون رجلاً جيوبهم مترعة بالمال يقصفون ويشربون النبيذ دون حد ، أخذوا وقد تملكتهم نشوة الراح يرفعون عقائرهم بالغناء الساقط ، وينوّهون فى شجاعة بأشياء جارحة لا يجرؤ إنسان يخاف الله جل سلطانه أن يشير إليها . فهم أحرار سعداء شجعان لا يخافون الله ولا يخشون الجحيم ولا يهابون الموت . يقولون ويفعلون ما يشاءون ، ويذهبون إلى حيث تسوقهم رغباتهم الجامحة

أما النبيذ فصاف صفاء الكهرمان ، وهو أيضا زكى الرائحة لذيذ الطعم ، لأن كل من يعب منه يطفح وجهه بالبشر ويرغب فى الشراب ثانية . وهو يجزى على ابتسام بابتسام ، وتهلل غبطة كأنه يعرف أى ضلال جهنمى يختبئ تحت حللته

على سرجل غضبه وبكى أحر البكاء وأشجاء . ثم استطرد يقص عليهم ما رأى : « وقفت امرأة